العلاقة بين الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية

اقام طغرلبك في بغداد ثلاثة عشر شهراً، عمل في أثنائها على تدعيم النفوذ السلجوقي في عاصمة الخلافة ، وتوثيق صلة السلاجقة بالخليفة. كما عملت الخلافة من جانبها، على تقوية الروابط بينها وبين هذه القوة الجديدة . فتزوج الخليفة القائم من أرسلان خاتون خديجة ابنة داوود جفري بك، أخ طغرلبك وذلك في عام (448 اهـ/ 1051 م) فتم بذلك ، التقارب بين البيتين العباسي والسلجوقي، واستقر نفوذ السلاجقة في العراق .

في غمرة هذه الانتصارات التي حققها طغرلبك ، قام البساسيري، من مقره الجديد؛ الرحبة ، بعدة حركات ارتدادية عسكرية وسياسية، بهدف إخراج السلاجقة من بغداد.

فعلى الصعيد العسكري، نجح في الاستيلاء على الموصل، بعد أن هزم السلاجقة قرب سنجار في عام (448 هـ/ 1056 م) وأخذ يستعد لدخول بغداد . وعلى الصعيد السياسي، أعلن انضمامه إلى الفاطميين، وخطب للخليفة الفاطمي الذي أرسل إليه الخلع، مما أحدث اضطرابات مذهبية عنيفة .

في هذا الوقت، عانى طغرلبك من عدة صعوبات داخلية ، اضطرته للخروج من بغداد في عام (449 هـ/ 1057 م)، وسار إلى الموصل لوضع حد للمشاكل التي أثارها البساسيري ضده ، فبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عاد إلى بغداد، حيث استقبله الخليفة بالترحاب ولقبه «ملك المشرق والمغرب » ويدل هذا التلقيب على أن الخليفة ، اعترف لطغرلبك بما أضحى تحت يده من البلاد في المشرق، وأذن له باستخلاص المغرب من الفاطميين .

ثم حدث أن واجه طغرلبك مشكلة جديدة تمثلت بتمرد قام به أخوه إبراهيم اينال في بلاد الجبل. فاضطر للخروج من بغداد، مرة أخرى، لقمع هذا التمرد. فانتهز البسأسيري ذلك، ودخل بغداد في (شهر ذي القعدة عام 450 هـ/ شهر كانون الأول عام 1058 م) وخطب فيها للخليفة الفاطمي مدة عام كامل ، وخرج الخليفة منها إلى عانة ملتجئاً إلى قريش بن بدران. وأخذ يراسل طغرلبك يستغيث به .

ويبدو أن الخلافة الفاطمية ، لم تكن تملك القوة الكافية لإمداد البساسيري حتى تحتفظ بما وصلت إليه ، كما يبدو أن ثقتها في هذا الرجل، لم تكن كبيرة، لذلك، لم تتحرك للقيام بعمل جدي، وتركته يواجه الموقف منفردا أمام قوة السلطان الذي ما لبث أن عاد إلى العراق ، بعد أن فرغ من إخماد تمرد أخيه، واضطر البساسيري إلى

الخروج من بغداد لعدم قدرته على الوقوف في وجه الجيش السلجوقي، ومن ثم قتل في عام (451 هـ/ 1059م) .

وبعد أن دخل طغرلبك بغداد، دعا الخليفة للعودة إلى عاصمته واستقبله في النهراوان، وأبدى اغتباطه بعودته . وبذلك استتب الأمر للسلاجقة في العراق وأصبحوا يمثلون ظاهرة جديدة في حياة دولة الخلافة العباسية، فقد اختلف موقفهم تجاه الخلافة عن موقف البويهيين، بشكل عام، فكانوا يحترمون الخلفاء تدينا ينبع من عقيدتهم ونشأتهم السنية .

ومن جهة أخرى، استطاع السلاجقة أن يوحدوا المشرق الإسلامي من جديد تحت رايتهم ويمدوا رقعته في غربي آسيا إلى حدود البوسفور عن طريق جهاد الدولة البيزنطية ، ويستولوا على معظم بلاد الشام من الفاطميين .

ظلت العلاقات الطيبة قائمة بين الخلافة العباسية و السلطنة السلجوقية ما يقارب ثمانية عشر عاماً منذ أن أعلن طغرلبك قيام دولته في خراسان. والراجح أن الظروف السياسية التي ذكرت، والتي أحاطت بالطرفين حتمت أن تكون هذه العلاقات وثيقة .

لكن سرعان ما نشب الخلاف بين الطرفين، بسبب محاولة طغرلبك الاستئثار بجميع السلطات في العراق، حتى تلك المتعلقة بالخليفة، بالإضافة إلى أنه حمل موارد العراق المالية إلى الخزانة السلجوقية. فقد أناب عنه في حكم بغداد، قبل أن يعود إلى عاصمته الري، موظفاً سلجوقياً أطلق عليه اسم «العميد» . كما عيّن موظفاً آخر لحفظ الأمن يعرف بـ «الشحنة» ، يأتمر بأمره، ويتمتع بنفوذ كبير حتى على الخليفة . وترك في بغداد حامية عسكرية، وضمّن بعض المدن لخواصه .

وهكذا أضحى الخليفة العباسي مجرداً تماماً من سلطاته، واستأثر نواب السلطان بالسلطة . ومما زاد الأمور تفاقماً، محاولة السلطان ربط البيتين العباسي والسلجوقي بالمصاهرة. فخطب ابنة الخليفة ، متجاوزاً بذلك، تقاليد الخلافة العباسية ، وهذا مطمح لم يسع إليه أحد من قبل .

ويبدو أن إقدامه على هذه الخطوة، كان وسيلة لتدعيم نفوذه السياسي برابطة أدبية قوية مع الخلافة العباسية. لكن الراجح أن السلاجقة طمعوا في منصب الخلافة ، إلا أنهم افتقروا إلى شرط النسب باعتبارهم أعاجم، وهدى التفكير طغرلبك إلى الزواج من ابنة الخليفة أملاً في أن يلد منها ولداً يكون له من شرعية النسب وقوة السلاجقة ما يوصله إلى سدّة الخلافة .

كانت ردة الفعل سلبية ، فقد انزعج الخليفة القائم من ذلك واستعفي السلطان، فلم يعفه، واضطر إلي قبول طلبه وزوجه ابنته في عام (455 هـ/1063م).

ولما آلت سلطنة السلاجقة العظام إلى ألب أرسلان في عام (455 هـ/ 1063 م)، ظلّت الأوضاع كما هي عليه من استئثار السلطان بالسلطة دون الخليفة. ففي عام (458 هـ / 1066 م)، عين السلطان ابنه ملكشاه ولياً للعهد من بعده ، وأمر بأن يخطب له في جميع البلاد التي يحكم فيها، ومنها بغداد ؛ دون أن يأخذ رأي الخليفة ، في ذلك التعيين، وفي تلك الخطبة . ولم يبلغه رسمياً إلا في عام (464 هـ/ 1072م)أي بعد ستة أعوام .

وعيّن السلطان في العام المذكور أبا العلاء محمد بن الحسين وزيراً دون علم الخليفة ، الذي استاء من هذا التصرف، واعتبره تدخلاً في شؤون الخلافة الخاصة ، ورفض استقباله .

وتعرض الخليفة في عهد السلطان ملكشاه، لكثير من الأمتهان ، وتجرأ بعض نواب السلطان على مشاركته في بعض مظاهر سيادته الدينية. فضرب سعة الدولة كوهرائين شحنة بغداد ، الطبول على باب داره رغماً عن الخليفة .

وفي أواخر حكم هذا السلطان، ازدادت علاقة الخليفة به سوءاً، حتى عزم على طرده من بغداد ، ونقل عاصمة الخلافة إلى أصفهان، تمهيدا لتعيين ابن ابنته خليفة لكن القدر كان بانتظار السلطان . فكفى الخليفة شر عزله .

تعرضت دولة السلاجقة العظام، بعد وفاة ملكشاه في عام (485 هـ/ 1092م) للانقسام والضعف بسبب النزاعات التي نشبت بين أولاده . وقد انعكس ذلك على أوضاع الخلافة العباسية التي تصرفت وفق ما تمليه مصلحتها للانعتاق من الطوق السلجوقي. فوقفت موقف المتفرج أحياناً من هذه النزاعات، في حين تأرجحت باعترافها بين مراكز القوة أحياناً أخرى، وأحياناً كانت تمنحه لأكثر من شخص، في وقت واحد، أو للغالب ؛ في محاولة لضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض .

فانتهز الخليفة المسترشد ومن أتي بعده من الخلفاء، هذه الفرصة، وأخذوا يعملون على استعادة ما كان للخلافة من سلطات وساعدهم على ذلك ابتعاد السلاجقة العظام عن بغداد بحيث أضحى الخليفة بعيداً عن تأثير النفوذ المباشر السلطان السلجوقي، وقد سار هذا الخليفة خطوات في هذا الطريق إلا أنه في النهاية ذهب ضحية محاولته ثم استطاع المقتفي في السنوات الأخيرة من حكمه ، أن يحقق جزءاً كبيراً من الهدف الذي أخفق المسترشد في تحقيقه مستغلاً تطور الأوضاع السياسية لغير مصلحة السلاجقة .

وفي عام (536 هـ/ 1141 م)، انهزم السلطان سنجر، آخر السلاطين السلاجقة العظام، أمام القراخطائيين. كما تجدّدت الخلافات السلجوقية الأسرية في كل من خراسان والعراق في عام (541 هـ/1146 م).

هذا في الوقت الذي أخذ الخليفة يقوّي مركز الخلافة من الناحية العسكرية . فأمر العامة . بجمع السلاح، وحفر الخنادق حول بغداد وأصلح أسوارها .

ويُعتبر عام (543 هـ/ 1148 م) البداية الفعلية لانتعاش الخلافة العباسية ، وكان ذلك نتيجة عجز السلطان مسعود السلجوقي حاكم العراق ، عن إخضاع أمراء الأطراف الذين ثاروا عليه ، مما أعطى الخليفة فرصة النهوض بالدولة.

ولما توفي السلطان مسعود في عام (547 هـ/1152 م)، فقدت الدولة السلجوقية في العراق، ركناً كبيراً. فأصابها الوهن، وأخذت بالتداعي، وعمّتها الاضطرابات، مما أدى إلى تقلص النفوذ السلجوقي في العراق شيئاً فشيئاً حتى زال في النهاية .

كان اول عمل قام به الخليفة المقتفى، بعد وفاة السلطان مسعود، هو أنه استولي على ممتلكات شحنة بغداد، وعزل الموظفين الذين ولآهم السلطان، وعين بدلاً عنهم موظفين يثق بهم، ثم جهز جيشاً حارب به شحنة بغداد وهزمه واستعاد منه الحلة والكوفة وواسط .

وانتهج الخليفة سياسة ضرب القوى السلجوقية بعضها ببعض للاستفادة من انقسام أمراء البيت السلجوقي، فولى في عام (551 هـ/ 1156 م) سليمان شاه بن محمود سلطاناً على العراق، كما عقد لأخيه ملكشاه بولاية العهد، ثم سيّر هما إلى همذان لقتال السلطان محمد الثاني .

ازدادت أوضاع دولة سلاجقة العراق تدهوراً بعد وفاة محمد الثاني في عام (554 هـ/ 1159 م). وقد حاول خلفاؤه إعادة نفوذهم السابق، لكنهم جوبهوا بمعارضة الخلفاء القوية وقد عبر المؤرخ السلجوقي البنداري عن هذا الحويني المتداعي بقوله: «و وقعت في أنفسهم من بغداد الهيبة ، و من حصولها الخيبة ، فلم يقدم ملك إليها ولا سلطان عليها» .

واستمر الخلفاء في النضال للتحرر من الطرق السلجوقي حتى تحقق لهم الاستقلال التام عن السلاجقة في عهد الخليفة الناصر حيث وصلت سلطة و نفوذ الخلافة المتجددة إلى الأوج، وتلاشت السلطة السلجوقية من العراق وغربي فارس . لكن محاولات الخلافة فرض سلطتها على فارس، أثبتت إخفاقها رغم أنها نجحت في استعادة الأهواز.

زالت دولة السلاجقة العظام في عام (552 هـ/ 1157 م). بمقتل السلطان سنجر على أيدي الغز في حين زالت دولة سلاجقة العراق في عام (590 هـ/ 1194 م) بمقتل السلطان طغرل الثالث على يد علاء الدين تكش خوارزمشاه . ونتيجة لهـ التطور دخلت دولة الخلافة العباسية في فترة استقلال فعلي دامت حتى عام (656 هـ/ 1258 م) .